ان اي عملية اعادة تأويل، هي في جوهرها عملية انتقاء. وهذا ينطبق، ايضاً، على التأويل القسّامي. ولكننا لا نبتعد كثيراً عن الحقيقة إذا قلنا انه في هذه الانتقائية بالذات تكمن الاهمية التاريخية لهذا النموذج من الممارسة الايديولوجية والسياسية، الذي تمكن من ان «يشكل [هذا النموذج] سلاحاً نظرياً وايديولوجياً تقدمياً ضد الاستعمار، وسلاح انعتاق فكرياً ضد التقاليد البالية والخرافات، وضد التحجر والجمود، وضد كل ما من شأنه ان يذكي الجهل والتأخر والانحطاط»[٣٤]. وهو ما يميز هذا الدور الثوري والتقدمي الذي حاولت الاضطلاع به الحركة القسّامية، والذي لعبته الحركة السلفية الوطنية في هذه الحقبة التاريخية.

«وكان القسّام يؤمن بأن عرب فلسطين، اذا شاءوا ان يحيوا في بلادهم ويدرأوا عنها الخطر الاستعماري والصهيوني، فعليهم ان يبادروا الى ذلك معتمدين على انفسهم فقط، غير منتظرين ان تهبط عليهم النجدات من السماء أو تأتي اليهم من وراء الحدود»[٣٥]. أي، «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم». والتغيير الذي يطرحه القسّام، يأتي عبر فعل واحد هو: الجهاد.

إن التحريض على الجهاد، ونبذ التواكل «يا ايها الذين حرض المؤمنين على القتال»، هو الجانب الرئيس في الدعوة التي يقوم عليها المشروع القسّامي. والمقولة الشهيرة التي رفعها، والتي رددها تلاميذه من بعده: «الجهاد رفيق الحرمان»[٣٦] تعكس واحدة من أهم مميزات الحركة القسّامية، بوصفها حركة كوادر ومناضلين، بالمعنى الذي يمكن ان يكون قريباً إلى المفهوم الماركسي.

ان دراسة البناء التنظيمي للحركة القسّامية يتيح المجال لايجاد جوانب عديدة من التشابه في كلا النموذجين اللذين تقدمهما كل من الحركة القسّامية والاحزاب الماركسية. فالتأكيد المتزايد على النضال الدعائي، والايديولوجي، الذي تصفه كلا الحركتين في صدارة اهتماماتهما، يعكس جانباً هاماً في توجه هاتين الحركتين يتمثل في الاعتماد على الدور الرئيس للكوادر، بوصفهم الطليعة المناضلة التي تمتلك الاستعداد لمواصلة الاستمرار بالحركة. ولكن، وقبل كل شيء، في ذلك النموذج من الاتحاد الجماعي في المقولة الايديولوجية، التي تسبغ هذا النوع من الطهارة والايمان. وتكران الذات الذي يميز هؤلاء المناضلين عن المحيط الذي يعيشون فيه.

«لقد فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة».

هنا وجه التمايز في الافضلية التي تلح عليها العقيدة الاسلامية المقاتلة في صدر الدعوة بين المجاهدين الذين يفضلهم الله وبين الآخرين. أما في اطار المشروع الثوري السلفي الجديد، فان «المجاهد رائد قومه، والرائد لا يكذب أهله»[٣٧].

يتعلق الأمر، اذاً، بصفات محددة وبشروط اخلاقية من نوع خاص، ينبغي توفرها بالنسبة الى المجاهدين، وهي المعيار الذي يؤهلهم لأن يكونوا قادة قومهم.

«كان يتفرس في وجوه المصلين ويدعو من يتوسم فيه الخير الى ان يتبعه، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل لانقاذ فلسطين مما يتهددها من خطر، ضمن مجموعات سرية صغيرة لا تزيد على خمسة أنفار»[٣٨]. أي ان اختيار المجاهدين لا يتم بصورة عفوية وعشوائية، بل يتم بتمعن ودراسة، لاقامة بنية تنظيمية قوية تستطيع السير بالمشروع الذي تطرحه الحركة حتى